مكتبة دار المعارف
للكتب الجامعية
بيع وشراء الكتب الجامعية
طباعة - استنساخ - رايزو - كبس هويات - سايبرول
مجمع كليات باب الزبير - مقابل عمارة الاداب
موبايل
٠٧٨٠١١٧٠٠٧٨
عبد الرزاق عبد علوان

الفصل الثاني

الكشوف الجغرافية

كانت الكشوف الجغرافية وليدة تحولات اقتصادية مهمة ظهرت في أواخر العصور الوسطى ، فقد عرفت أوربة في أواخر عهد الامبراطورية الرومانية أي منذ أواخر القرن الثالث الميلادي انقلاباً أدى إلى زوال ما يمكن تسميته (الاقتصاد العالمي) الذي أوجدته الامبراطورية الرومانية بعد سيطرتها على حوض البحر المتوسط وتسهيلها للتجارة بينها وبين شرقي آسية . إلا أن أوربة انعزلت عن هذا الاقتصاد العالمي نتيجة لسيطرة البرابرة على أوربة ولفتح المسلمين الدول الواقعة في القسمين الآسيوي والافريقي من البحر المتوسط . وسيطر الاقتصاد المحلي الاكتفائي المغلق في أوربة .

ضمت أوربة في العصور الوسطى عالمين تجاريين هما عالم بحري البلطيق والشمال وعالم البحر الأبيض المتوسط اللذين ارتبطا ببعض براً وبحراً عن طريق ممرات جبال الألب ومضيق جبل طارق . وقد أدى النشاط التجاري والصناعي إلى ازدهار مدن شمال أوربة وغربها ، فقد برزت مدن مهمة صناعياً وتجارياً في الفلاندر وبرابانت Brabant مثل أراس Arras وليل Lille وفي انكلترة مدينة برستول وفي فرنسة باريس وليون وفي أعلى الراين كوبلنز Coblenz وفورمز Vorms وفي جنوب ألمانية نونبيرغ Nünberg وميونيخ München وفي شمال ألمانية لوبيك التي كانت مركزاً أساسياً للتجارة الشمالية ، ألا أن سكان هذه المدن المزدهرة تجارياً وصناعياً عاشوا دائماً تحت رحمة الاضطرابات السياسية مما أدى إلى إقامة اتحادات أو عصبات فيما بينها خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، ومن أهم هذه الاتحادات عصبة وادي الراين وعصبة المدن الهانزية[1] ، التي أخذت تفقد مكانتها السياسية والتجارية في القرن الخامس عشر بسبب تشعب اهتماماتها وتعرضها للمتاعب السياسية واضمحلال صناعة أسماك الرنجة في بحر البلطيق[2] . وقد أخذت المشروعات الهولندية والإنكليزية

بمنافسة مشروعات هذه العصبة في نهاية القرن المذكور . وتمكنت المدن الإيطالية من السيطرة على تجارة البحر المتوسط نظراً لموقعها الهام والاستراتيجي بين طرق الشرق الأدنى والطرق الممتدة عبر جبال الألب إلى أوربة . وقد بدأت فرنسة في تنشيط تجارتها في البحر المتوسط في القرن الخامس عشر فقد وقف الفرنسيون ضد احتكار البندقية وأقاموا علاقات تجارية مع مصر وسورية وشمال أفريقية . وقد نافست مملكة أرغونة المدن الإيطالية في البحر المتوسط وبخاصة بعد استيلائها على جزر البليار وسردينيا وبسط نفوذها على صقلية ونابولي . وقد تاجر القطالونيون[3] بإسبانية مع راجوسا Ragusa وغيرها من موانئ الإدرياتيك ومع مصر والليفانت بوجه عام ومع ساحل البربر ومع الفلاندر وانكلترة ، إلا أن النفوذ القطالوني اضمحل في القرن الخامس عشر بسبب السياسات الداخلية والمنافسة الإيطالية . وقد ازدهرت تجارة البرتغال ببطء رغم امكانياتها الكبيرة واشتهر من موانئها كل من لشبونة وأوبورتو Operto . وقد أبحرت وبتشجيع من الأمير هنري الملاح حملات متعاقبة على طول ساحل افريقية الغربي[4] .

ومن الملاحظ أنه ومنذ أواخر العصور الوسطى ظهر ميل في معظم الدول الأوربية نحو توطيد السلطة الملكية وتقوية المركزية وإضعاف القوى الإقطاعية ، وهذا بدوره أدى إلى نتائج اقتصادية مهمة . فقد قامت فرنسة في عهد لويس الحادي عشر وانكلترة في عهد هنري السابع في القرن الخامس عشر بيسط يد الملوك القوية وتقوية الدولة المركزية ونشر السلم الداخلي ، كما شهدت إسبانية الشيء ذاته . أما في ألمانية فقد ظهرت عصبات من الأمراء والمدن بموافقة الامبراطور من أجل مكافحة قطّاع الطرق والعصابات . وبدأت الحكومات الأوربية تهتم بفتح الطرق كأداة مهمة لتوطيد السلطة المركزية والمبادلات التجارية . وبدأت الدول تظهر أكثر فأكثر كوحدات اقتصادية ، وبدأ الاقتصاد الوطني على نطاق الدولة يحل محل الاقتصاد المحلي الاكتفائي. وأصبحت الأسواق في أوربة أداة بيد السلطة الحاكمة من أجل جذب المبادلات التجارية على حساب الجيران وليس فقط لجباية الضرائب وتحولت فكرة المنافسة من منافسة تجار إلى منافسة دول ، كما نشطت المبادلات التجارية بين الدول مما أدى إلى عودة أوربة إلى الدخول في النشاط الاقتصادي العالمي .

وشكلت حركة الكشوف الجغرافية أهم نتيجة عملية للنهضة الأوربية ، فقد تمكن الملاحون الأوربيون من تحقيق أعظم نصر في مجال الكشوف الجغرافية منذ أواخر القرن الخامس عشر ، حيث تمثل هذا النصر في حادثين مهمين الأول : كشف الأمريكتين ابتداءً من عام ١٤٩٢ م والثاني كشف الطريق البحرية في أوربة إلى الهند بالدوران حول رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨ م ، فقد كان لهذين الحدثين نتائج عميقة الأثر في تاريخ العالم .

العوامل التي أدت إلى الكشوف الجغرافية :

تضافرت عوامل عديدة أدت إلى ظهور حركة الكشوف الجغرافية أهمها :

أولاً – عوامل دينية :

تمثلت في رغبة أوربة متابعة حروبها الصليبية ضد المسلمين . فقد كانت الحروب التي بدأت في الأندلس ضد المسلمين هناك – حرب الاسترداد –[٥] والحملات الصليبية ضد المشرق العربي الإسلامي والمغرب العربي الإسلامي قد شارفت على نهايتها في الظاهر . ولكن في الحقيقة فإن روحاً تزمتية انتقامية قد تولدت عند بعض الملوك ، لذلك أرادوا متابعة حربهم ضد لمسلمين بل ومطاردتهم في ديارهم وإضعافهم ونهب خيراتهم الاقتصادية . وقد نقلوا نشاطهم إلى شمالي افريقية وغربها لتعقب المسلمين متطلعين إلى محاصرة الإسلام عن طريق البحر وطعنه من الخلف ، وبالتالي القضاء عليه في آسية وأفريقية . فمنذ القرن الخامس عشر بدأت البرتغال مهاجمة سواحل المغرب الأقصى ، وفي مطلع القرن السادس عشر قامت إسبانية باحتلال مراكز عديدة على سواحل أفريقية الشمالية (المغرب ، الجزائر ، تونس ، طرابلس الغرب) .

وقد ظفرت الكشوف الجغرافية باهتمام كبير من البابوية ، حيث أصدر بعض البابوات مراسيم ، شبهوا فيها الإسلام بالطاعون ، وطالبوا ببذل الجهود الكبيرة لتنصير سكان المناطق التي كشفت والتي سيتم كشفها . كما بذل عدد من البابوات قصارى جهدهم لإغراء البحّارة بوعدهم بالعفو عنهم يوم القيامة . كما رافق دعاة المسيحية من رجال الطوائف المسيحية الرحلات الاستكشافية من أجل القيام بمهمة نشر

المسيحية أيضاً[٦] . وقد بدأت الرحلات الكشفية بالبحث عن البلد المسيحي الذي يقع على طريق التوابل والذي سمعوا بأنه قريب من المسلمين ويحكمه الراهب يوحنا ، من أجل الاتحاد معه في صراعهم المقبل ضد الإسلام . وقد تكون الحبشة هي البلد الذي يبحثون عنه . وقد شكل ذلك هدف رحلة كوفيلهام ١٤٦٠ م إلى شرقي أفريقية عبر الاسكندرية والسويس بالإضافة إلى هدفه الأول وهو البحث عن طريق الهند ، فقد وصل كوفيلهام إلى شواطئ أفريقية الشرقية وإلى ميناء سوفالا من أجل الالتفاف نحو أفريقية . وقد قام بزيارة الحبشة فقربه النجاشي إليه وبقي هناك حتى وفاته ١٥٤٥ م[٧] .

وقد وجدت بالإضافة إلى هذه الروح السلبية روح إيجابية أيضاً ، هدفت إلى كشف مناطق جديدة للتبشير بالدين المسيحي بين سكانها وزيادة عدد المؤمنين بهذا الدين هناك[٨] .

ثانياً – العوامل الاقتصادية :

وتتلخص في محاولة التخلص من الرسوم الجمركية الفادحة التي كانت تفرضها السلطات المملوكية الحاكمة في مصر وبلاد الشام على السلع الشرقية عند مرورها في أراضيها ، وكذلك الرغبة في ضرب احتكار تجار البندقية الذين كانوا يقومون بنقل السلع الشرقية من موانئ مصر وبلاد الشام إلى أوربة . وقد أدى هذا الإحتكار إلى تحقيق أرباح خيالية للعاملين في مجال التجارة منذ شحن البضائع من موانئ تصديرها في آسية إلى توزعها في أوربة . ومن أهم السلع الشرقية التوابل (القرفة والفلفل وجوز الطيب) لاستخدامها في الطعام . والعقاقير الهندية كالأفيون والكافور والقمح من أجل تركيب أنواع عديدة من الأدوية وكذلك العطور كالمسك والعنبر وماء الورد ، بالإضافة إلى الأقمشة الحريرية والبن والعاج والأحجار الكريمة . فقد كان يتم حمل هذه السلع على سفن عربية أو هندية – عربية إلى شمال الخليج العربي أو شمال البحر الأحمر ومن هناك تنقل بوساطة القوافل البرية إلى الموانئ الشرقية كبيروت والاسكندرية وطرابلس حيث يتم بيعها للتجار البنادقة الذين يقومون بدورهم بتوزيعها في أوربة بأثمان باهظة جداً ، ولذا كان هدف الأوربيين ولاسيما المدن الإيطالية مثل جنوة وفينا

البحر المتوسط كإسبانية والبرتغال الوصول مباشرة إلى البلاد المنتجة للتوابل ، وذلك عن طريق الالتفاف حول أفريقية ، أو عن طريق الاتجاه غرباً في المحيط الأطلنطي للتخلص من الوسيط العربي والمملوكي والاحتكار البندقي من جهة ، ومن أجل القيام بالتخفيف عن خسارتها للنقد الذهبي في مثل هذه التجارة[٩] . ومن الجدير بالذكر هنا أن أوربة كانت تشكو من ندرة المعادن الثمينة في القرن الخامس عشر ، مما أدى إلى إعاقة التجارة الأوربية ، واختلال في الأمور النقدية بسبب نضوب مناجم الفضة فيها وتوقف تدفق الذهب من السودان عبر أفريقية الشمالية بكميات كبيرة . لذا أرادت البحث عن مثل تلك المعادن الثمينة في البلاد الآسيوية التي ذكرت الأخبار المنتشرة انذاك أنها تحوي الكثير منها[١٠] . وقد شجع الأوربيين في محاولة إيجاد طريق بحري مباشر إلى الشرق قيام الامبراطورية العثمانية الكبيرة في الشرق وسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ م بيد العثمانيين ، مما أدى إلى إعاقة تجارة أوربة الغربية جزئياً مع آسية عبر الطرق البرية[١١] .

ثالثاً – عوامل سياسية :

دفع نمو مفهوم الدولة القومية في القرن الخامس عشر الدول الأوربية للقيام بعمليات استكشافية لتثبيت وجودها ولتحقيق نفوذها السياسي وتدعيم اقتصادها بالإضافة إلى القضاء على السيادة السياسية للقوى القائمة كالبندقية والإسلام . فقد هز سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ م بيد العثمانيين أوربة من النواحي السياسية والدينية والاقتصادية . فقد شعرت أوربة بخطر الدول المسلمة سياسياً على كياناتها السياسية الحديدة لأنها لم تكن قد أبعدت خطر الإسلام بشكل نهائي من إسبانية وشمالي أفريقية حتى أخذ بتهديدها من الشرق ، بالإضافة إلى أن ذلك عدّ ضربة دينية قاسية للعالم المسيحي بعد سقوط عاصمة المسيحية الشرقية بيد الإسلام ، وضربة اقتصادية لأن سيطرة العثمانيين على شرقي البحر المتوسط أدت إلى إغلاق الطرق المؤدية إلى الشرق الأقصى في وجه الأوربيين . لذا كان القضاء على القوة الإسلامية العثمانية هو من العوامل التي دفعت بالبرتغاليين والإسبان للقيام بعمليات الكشف الجغرافي أو لتشجيع ودعم الملاحين الجنوبيين للقيام بهذه العمليات الكشفية من القرن الرابع عشر[١٢] .

رابعاً – عوامل فكرية وتقانية :

بدأت أوربة منذ القرن الثالث عشر تتحرر وبالتدريج من المعتقدات الوهمية والخرافية وبخاصة في مجال المعرفة الفكرية . وقد جاء ذلك نتيجة لاحتكاك أوربة بما قدمه العرب من إنتاج فكري إسلامي ولاسيما في ميدان الفلك والجغرافية . فقد قدم العرب إنتاجاً وافراً كمؤلفات المقدسي[١٣] وابن رسته[١٤] وياقوت الحموي[١٥] والإدريسي[١٦] في الجغرافية ومؤلفات كل من أبي الوفا البوزجاني[١٧] وابن يونس المصري[١٨] وجابر بن أفلح الأندلسي[١٩] والطوسي[٢٠] . وكذلك قام العرب بترجمة الكتب اليونانية القديمة وقدموها لأوربة كمؤلفات كلود بطليموس . وقد رجع الأوربيون إلى الأفكار التي سادت في العصور القديمة بخاصة علم اليونان القائل بكروية الأرض . وظهرت ملامح نهضة جغرافية كان لها الدور الأساسي في الكشوف الجغرافية . وقدم الأمير هنري الملاح البرتغالي خدمات كثيرة للمعرفة الجغرافية كإنشاء مركز لدراسة الجغرافية ولرسم الخرائط وترجمة كتاب بطليموس (الجغرافية) إلى اللاتينية في عام ١٤٠٩ م . وقد ساهم كل من حركة الترجمة إلى اللغة اللاتينية واختراع الطباعة في انتشار الوعي الفكري في أوربة . وقد ساعد تقدم فن الملاحة وتطور تقانات الاتجاه[٢١] والخرائط والكرات المصنوعة[٢٢] حديثاً على انطلاق السفن في المحيطات وفي دفع حركة الكشوف الجغرافية بشكل عام .

خامساً – غريزة حب الاستطلاع ورغبة الأوربيين في زيادة معلوماتهم الجغرافية، وكان مبعث هذه الرغبة ذلك التغيير الكبير الذي طرأ على أفكار الناس عموماً نتيجة لتنبه الذهن البشري وظهور روح البحث العلمي والتنقيب في عصر النهضة[٢٣] .

إن رغبة بعض الناس في أن يحيوا حياة مفعمة بالحوادث والمغامرات ويتسع فيها المجال للمغامرين بخاصة في القرن السادس عشر ، شأن الفاتحين الإسبان Conquistadores من العالم الجديد ونهمهم للحصول على الذهب والأرض والعبيد وشأن الملاحين الإنكليز في عهد الملكة اليزابيت ١٥٥٨ – ١٦٠٣ م من أمثال هوكنز Howkins وكافنديش Cavendish وسير فرنسيس دريك Francis Drake الذين طمعوا في الاستيلاء على مراكب الإسبان .